



نهج الأحرار من قديم

محمد الغزالى (ت 1416 هـ – 1996 م)

في السهول المستوية ينداح السيل حتى يبلغ منتهاه، ما يعترضه شيء.
وفي حقول الأرز والقمح تهب الرياح فتميل السيقان الخضة كلها، ما ينتصب منها عود.
وبين جماهير الدهماء ينتشر التقليد الخاطئ، أو العرف السيئ فما يرده ذكاء، أو تمتد رهبة السلطان وسطوة الملك الطائش
فما يقمعها تمرد.

ولكن هناك رجالاً من معادن فريدة تشدُّ عن هذا العموم المهين.
 فهي الجبال التي تقف مد السيل، والأشجار التي لا تنثني مع هبوب العاصفة.
وهم الصاحون بين السكارى، فإذا شاع خطأ تعرضوا لهم له بالنقד، وإذا ألف الناس مسلكاً لم يعجبهم تصرفوا لهم منفردين
على طريقة المعرى حين قال:

تَنَاهَبَ عَمْرُو إِذْ تَنَاهَبَ خَالِدٌ *** بَعْدَوْيَ فَمَا أَعْدَتْنِي التَّهْبَاءُ

وإذا رکع الناس بين يدي ملك ظالم، أو استكانوا لأوضاع مزرية، لمحت في أبصارهم بريق الأنفة، وفي سيرتهم شرف
الحرية، مما يستريحون حتى تنجو البلاد والعباد من آثار الفساد، وقيود العبودية.
أولئك هم الثوار الذين يعتز بهم الإيمان وتستقيم بهم الحياة.

وإذا كان الله - جل شأنه - قد صان العمران البشري بالجبال، وقال في كتابه: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُّلًا لَعَلَّهُمْ يَهُتَّدُونَ} [الأنبياء: 31]. فقد اقتضت حكمته العليا أن تصون المجتمع الإنساني بهذا النفر من
حراس الحقائق الرفيعة، وحماة المعالم الفاضلة.

فهم الدواء الخالد لكل ما يفسو في الدنيا من علل، وهم الأمل الباقى لبقاء الخير في الأرض، وإن ترادفت النوب، واكفهرت
الآفاق.

ربما كان عشق الحق خليقة فيهم فطرهم الله عليها، كما قال في كتابه: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهُدَّلُونَ}

ولعشق الحق أعباء مرهقة، أولها الصبر على تثبيط الخاذلين، وكيد المعوقيين والمخالفين، بيد أن طبيعة الثورة على الباطل لا تكترث لشيء من هذا، وفي الحديث الصحيح: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة - أو حتى يأتي أمر الله - وهم على ذلك)).

وأكثر الناس يعرف الحق معرفة حسنة، غير أنه لا يأسى لهزيمته، ولا يأسف لضياعه! أو لعل إحساساً من الضيق يخامره خذلان الحق، إلا أن هذا الإحساس يصطدم بمصالح النفس، وضرورات العيش، ومطالب الأولاد، فيتراجع المرء رويداً رويداً عن هذا الشعور النبيل، ويؤثر الاستسلام على المقاومة، والاستكانة للواقع عن تغييره وإنكاره.

وهذا السلوك لا يتفق مع طبيعة الإيمان، ويستحيل أن تتقبله نفس ثائرة لله مؤملة فيما عنده.

فالغاضب لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- يذهل في سورة يقينه بما يحرض عليه الجناء من حياة ومتاع، ولا يرى أمامه إلا نصرة الحق ورفع لوايه وليكن ما يكون.

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-. قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ((لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)). على أن من العبث انتظار التفاني في الحق من عبيد أهوائهم وصرعى نزواتهم، إن الأمر يحتاج إلى تربية وتبصرة حتى يكون مذاق الإيمان أحلى في فم الإنسان من كل لذة عاجلة.

عندما يشعر امرؤ بالسعادة؛ لأنه واسى محروماً، أو نصر ضعيفاً، أو آمن فلقاً، أو آوى هائماً، أو أحسن عرضاً، أو حقن دماً، فهو إنسان كبير، ومثله أهل لأن يفتدى عناصر الإيمان بالنفس والنفيس.

والتأثيرون ضد الظلم والناقمون من أعوانه رجال من ذلك المعدن الصلب، واندفعهم لتقليم الأظافر الشرسة ضرب من الإصلاح العام للحياة والأحياء؛ {وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِيَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} [البقرة: 251].

وفي الأعصار الأخيرة قامت ثورات شتى استهدفت إنقاذ الجماهير من الملوك المسلمين، وأسرهم المحظوظة، وثورة يوليوا سنة 1952 م من بين هذه الثورات الخطيرة، ونحب أن نقول بجلاء: إنه حيث يسود الحكم المطلق تنتقض الإنسانية من أطرافها، بل من صميمها!

وذلك أن الله قد خلق البشر آحاداً صحيحة، وجعل لكل أحد منهم مدى معيناً يمتد فيه طولاً وعرضًا. فإذا عنَّ لأحدهم أن يتطاول وينتفخ ويزيد، فعلى حساب الآخرين حتماً.

ومن هنا تجد من حوله أنصاف بشر أو أرباع بشر! أصبحوا كسوراً لا رجالاً سواء، وما نقص من تمام إنسانيتهم أضيف زوراً إلى الكبير المغدور، فأصبح فرعوناً مالكاً، بعدما كان فرداً كغيره من عباد الله.

ولما كان الإسلام إنقاذاً من جهالاتهم المتوارثة، وحمامة للفطرة من أن تأكلها تقاليد السوء، وقوانين الاستبداد الأعمى، فقد جعل كلمة التوحيد - وهي عنوانه وحقيقة - نفياً للوثنيات كلها، ورفضاً لأية عبودية في الأرض، وتدعيمها للحرية التي نراها الله الناس عليها، والكمال الذي رشحهم له.

ذلك بعض ما تعنيه الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله)، وهي الكلمة التي يرددوها الألوف دون وعي، بل لعلم يعيشون في ظلها عبيد أوهاماً.

وقد بعث محمد للناس وفي قلوبهم وجل من سطوة الملوك الأوليين، فلما جيء بأعرابي يوماً في حضرته أخذته رعدة - يحسب نفسه قريباً من أحد الجبابرة - فقال له الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ((هؤن عليك، إني لست بملك، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)).

كان قد وقر في الأذهان أن الملوك ليسوا من عبيد الله المألفين؛ فإن الأبراج التي يحيون فيها قطعت نسبتهم من الأرض، ووصلتهم بالسماء، فزعموا أنهم نسل آلهة، أو عاشوا كذلك، وإن لم يقولوا بالسنن ما يقولون بأفعالهم!

فأراد محمد -صلى الله عليه وسلم- أن يعرف العرب أنه بشر مثلهم لا ملك فوقهم، ثم انتسب إلى أمه، لا إلى العظماء من أجداده، ليزداد لله تواضعاً، ومن الناس قريباً.

وجاء الحكام الراشدون بعده فمشوا في أثره، وربطوا نسبهم بالجماهير التي نبتوها منها مما تنكروا لها، ولا تکبروا عليها، ولا حسب أحدهم نفسه من دم أنقى أو عنصر أذكى.

واسمع إلى أبي بكر -رضي الله عنه- بعد ما ولـي الخلافة يقول: "أما بعد، فإني قد ولـيت عليكم، ولـست بخـيركم، فإن رأيـتـونـي على حق فأـعـيـنـونـي، وإن رأـيـتـونـي على باـطـلـ فـسـدـدـونـي، أـطـيـعـونـي ما أـطـعـتـ اللهـ فـيـكـمـ، فإن عـصـيـتـ اللهـ فـلاـ طـاعـةـ لـيـ عـلـيـكـمـ، أـلـاـ إـنـ أـقـوـاـكـمـ عـنـيـ الـضـعـيفـ حـتـىـ آـخـذـ الـحـقـ لـهـ، وأـضـعـفـكـمـ عـنـيـ الـقـوـيـ حـتـىـ آـخـذـ الـحـقـ مـنـهـ. أـقـولـ قـوـلـيـ هـذـاـ وـأـسـغـفـرـ اللـهـ لـيـ وـلـكـمـ".

وجاء في خطبة لـعـمرـ بـنـ الـخـطـابـ -رضـيـ اللـهـ عـنـهـ: "اعـلـمـواـ أـنـ شـدـتـيـ التـيـ كـنـتـ تـرـونـهـاـ اـزـدـادـتـ أـضـعـافـاـ عـلـىـ الـظـالـمـ وـالـمـعـتـدـيـ، وـالـأـخـذـ لـضـعـيفـ الـمـسـلـمـينـ مـنـ قـوـيـهـمـ، فـاتـقـواـ اللـهـ وـأـعـيـنـونـيـ عـلـىـ نـفـسـيـ بـالـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ وـالـنـهـيـ عـنـ الـمـنـكـ، وـإـحـضـارـيـ النـصـيـحةـ فـيـمـاـ وـلـانـيـ اللـهـ مـنـ أـمـرـكـ".

أـيـهـاـ النـاسـ: "إـنـهـ لـمـ يـلـغـ ذـوـ حـقـ فـيـ حـقـهـ أـنـ يـطـاعـ فـيـ مـعـصـيـةـ اللـهـ".

هـذـاـ هـوـ وـضـعـ الـحـاـكـمـ الـمـسـلـمـ فـيـ الدـوـلـةـ الـمـسـلـمـةـ، رـجـلـ مـنـ صـمـيمـ الـأـمـةـ يـطـلـبـ أـنـ يـعـانـ عـلـىـ الـحـقـ، وـأـنـ يـمـنـعـ مـنـ الـبـاطـلـ، وـيـرـىـ السـلـطـةـ الـمـخـوـلـةـ لـهـ سـيـاجـاـ لـلـمـصـالـحـ الـعـامـةـ، لـاـ مـصـيـدـةـ لـلـمـنـافـعـ الـخـاصـةـ، وـلـاـ بـاـبـاـ إـلـىـ الـبـطـرـ وـالـطـغـيـانـ، ذـلـكـ هـوـ دـأـبـ الـإـسـلـامـ الـذـيـ خـطـ مـصـارـعـ الـجـبـابـرـةـ فـيـ الـدـنـيـاـ، وـحـطـ مـنـازـلـهـمـ فـيـ الـآـخـرـةـ؛ {تـلـكـ الدـارـ الـآـخـرـةـ نـجـعـلـهـاـ لـلـذـينـ لـاـ يـرـيدـونـ عـلـوـاـ فـيـ الـأـرـضـ وـلـاـ فـسـادـاـ وـلـاـ عـاقـبـةـ لـلـمـتـقـنـ} [القصص: 83].

حيـثـ يـكـونـ الـعـسـفـ وـالـخـسـفـ لـاـ بـدـ أـنـ يـكـونـ الـإـسـلـامـ دـيـنـاـ ثـائـرـاـ يـطـلـبـ الـنـصـفـ وـالـرـحـمـةـ.

وـحـيـثـ يـكـونـ الـإـسـتـعـلـاءـ وـالـإـسـتـعـبـادـ لـاـ بـدـ أـنـ يـكـونـ الـمـسـلـمـونـ ثـوـارـاـ يـنـشـدـونـ الـعـزـةـ الـكـرـامـةـ.

وـقـدـ تـكـوـنـ عـقـبـيـ الـجـهـادـ مـوـتاـ فيـ غـرـبـةـ، أـوـ قـتـلـاـ فيـ مـعـرـكـةـ، وـالـثـائـرـونـ ضـدـ الـبـاطـلـ أـدـنـيـ النـاسـ إـلـىـ الـبـلـاءـ وـالـعـطـبـ.

وـمـاـذـاـ فـيـ هـذـاـ؟ إـنـ مـاـ يـحـذـرـهـ غـيرـهـ هوـ الـذـيـ يـنـشـدـونـ لـأـنـفـسـهـمـ!

وـتـلـكـ طـبـيـعـةـ الـثـائـرـينـ، إـمـاـ أـنـ يـحـيـواـ كـمـاـ يـرـيدـونـ، أـوـ يـمـوتـونـ كـمـاـ يـرـيدـونـ.

إـنـهـمـ عـزـيمـةـ تـؤـثـرـ فـيـ الـحـيـاةـ سـلـبـاـ وـإـيجـابـاـ، وـلـيـسـواـ عـرـبـاتـ تـشـدـ إـلـىـ جـيـادـ الـآـخـرـينـ.

وـيـعـجـبـنـيـ قولـ الطـرـمـاحـ بـنـ حـكـيـمـ، وـهـوـ يـسـعـيـ إـلـىـ الـغـنـىـ حـتـىـ لـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ فـسـقـةـ الـأـمـرـاءـ فـيـ عـهـدـهـ أـوـ إـلـىـ عـدـةـ الـخـلـفـاءـ – كـمـاـ سـمـاهـ:

وـإـنـيـ لـمـ قـتـلـ جـوـاديـ وـقـاتـلـ بـهـ ***ـ وـبـنـفـسـ الـعـامـ إـحـدـيـ الـمـقـاـنـفـ
لـأـكـسـبـ مـالـاـ، أـوـ أـقـوـلـ إـلـىـ غـنـىـ ***ـ مـنـ اللـهـ يـكـفـيـنـيـ عـدـةـ الـخـلـافـ
ثـمـ اـسـمـعـ إـلـىـ هـذـاـ الـثـائـرـ الضـارـبـ فـيـ مـنـاكـبـ الـأـرـضـ طـلـبـاـ لـلـعـزـةـ يـقـولـ:
فـيـاـ رـبـ إـنـ حـانـتـ وـفـاتـيـ فـلـاـ تـكـنـ **ـ عـلـىـ شـرـجـ عـلـىـ بـخـضـرـ المـطـارـفـ(1)

وـلـكـنـ قـبـرـيـ بـطـنـ نـسـرـ مـقـيـلـ ***ـ بـجـوـ السـمـاءـ فـيـ نـسـورـ عـوـاـكـفـ

وـآـسـىـ شـهـيدـاـ ثـاوـيـاـ فـيـ عـصـابـ ***ـ يـصـابـونـ فـيـ فـجـ مـنـ الـأـرـضـ خـائـفـ

وـالـمـسـلـمـونـ الـيـوـمـ لـنـ يـنـجـحـواـ فـيـ حـرـبـ الـاستـعـمـارـ إـلـاـ إـذـاـ اـسـتـهـرـوـاـ بـالـمـوـتـ وـأـحـبـوـهـ فـيـ ذـاتـ اللـهـ.

أـرـأـيـتـ تـارـيـخـنـاـ الـقـدـيمـ وـأـبـطـالـنـاـ الـأـوـلـيـنـ:

لـقـدـ كـانـوـنـ يـتـمـنـونـ مـنـ أـعـماـقـ قـلـوبـهـمـ أـنـ تـثـوـيـ جـثـثـهـمـ الـمـمزـقـةـ فـيـ حـوـاـصـلـ الـطـيـرـ وـأـجـوـافـ الـوـحـوشـ. وـهـمـ هـلـكـيـ، لـاـ بـيـنـ

أحضان الأهل الباكيين والأحباب الموسسين، ولكن في وحشية الصحراء ورحاب الميادين أو في أفق مبهم من أعماء الدنيا، وعلى شفة أحدهم وهو يجود بروحه قول الشاعر:

وذلك في ذاتِ الإله وإن يشاً *** يبارك على أوصالِ شلوِ ممزَعٍ

هكذا مضت سنة الإيمان منذ أبرم عقد الجنة، ووصف آيات الله من وقعاً على بأنهم {يقتلون ويُقتلون} [التوبه: 111]. وهكذا مضت سنة الرجولة من قديم الزمان. فاعتبرت موت الرجل بين أهله معرة؛ لأن هذا شأن النساء والعبد. فمصارعهم تحمرُّ بها صهائف التاريخ، ويلبس الشفق القاني ثوبه الأرجواني منها! وبذلك المعنى هتف الشاعر القديم:

وإنا لقومٌ ما نرى القتل سبة*** إذا ما رأته عامرٌ وسلوُ
تسيلُ على حدِ الظبابِ نفوسُنا *** وليس على غير الظبابِ تسيلُ
وما مات منا سيدٌ حتفَ أنفه *** ولا طل منا حيثْ كان قتيلاً

أجل هذه شارات السيادة، ألا يموت الرجل حتف أنفه، ولكن يموت في عرصات الوغى.

لما قتل الأمويون مصعب بن الزبير، قام أخوه عبد الله خطيب الناس فكانت خطبته تعبرأً لبني أمية أنهم يموتون على فرشهم! أما آل الزبير فقد كفروا في دمائهم بطلاً من بعد بطل..

وخطب أبو حمزة الخارجي يصف رجاله، وكيف جند لهم المنايا، واستهلكهم صدق الجهاد، فكان من كلامه في لقائهم الحتوف: "استخفوا بوعيد الكتبة لوعيد الله، ومضى الشباب منهم قُدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتحضَّبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت إليه طير السماء.. فكم من عين في مناقير طائر، طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله...! وكم من كفٌ زالت عن معصمتها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله".

فانظر مصاير أولئك الشباب كيف خطأها القدر؟
وكيف تذكر في سياق الدالة على حب الله والتفاتي فيه؟

إن أولئك الشهداء المستميتين في محاربة البغي، الذين رضوا أن تُدقَّ على أنفاسهم قبل أن تُدقَّ على أبواب الإسلام يد آثمة، وأن تُمزق أعضاؤهم قبل أن يتمكن من الكيد لدين الله كافر سافر أو منافق خناس.

إن أولئك الشباب الهمجي، المبعثرة أحشاءهم هنا وهناك، سوف تجمعهم القدرة العليا بكلمة واحدة، فإذا الجبين المشجوج ناصع شرق، وإذا العين المفقودة حوراء مبصراً، وإذا الجثة الممزعة بشر سوي يقول لله: (آمنت بك وتحملت فيك ما ترى)، تلك سنة المؤمنين الأحرار، في المحيا والممات.
وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم.

(1) أي على نعش ملفوف بالأقمشة المطرزة.

المصدر: موقع الدرر السنوية، نفلاً من كتاب (من مقالات الشيخ الغزالى)، جمع: عبد الحميد حسانين حسن، دار نهضة مصر- القاهرة. (1). 65/.